اسير يطلب الحرية [1]

حيّا التقدمُ مربعَ الفيحاء مجلي الصفاء ومرتعَ النعماء
ورعى آكارمها العليُّ فانهم نخب الكرام وخيرة الفضلاء
وهمُ هم والحق اعظم شاهد روح العلوم وغرة العلماء
قوم لهم خُلق ارق من النسـ ـيم اذا سرى في روضة غنّاء
غرُّ الفضائل مازجت اخلاقهم مثل امتزاج الماء بالصهباء

سادتي انني اقف وقفة المعجب لمسمى هذه المدينة العظيمة بقدميتها . العظيمة باهميتها التاريخية . العظيمة بكونها ام المدن السورية . العظيمة بمشاهيرها واعاظم رجالها . اقف لديها وانا اراها وارى الاصابة مني معقدة الازار — أراها عاصمة الآداب الاخلاقية . اراها خير حلبة لسباق اولي النهضة العلمية . اراها ارضاً طيبةً وسماء نقية صالحة لحياة روح الحرية الادبية روح العلم الصحيح . روح الفضائل النفسية في هوائها النسيم ونسيمها العليل

وارائي بازاء هذه العظمة الخالدة كعصفور يرفع نظرهُ الى قمة جبل عظيم وهو واقف عند حضيضهِ فيرى ما يبهر نظرهُ ويشدهُ فكرهُ فيغرق في لجج التصور والخيال

وقد اقترح عليَّ بعض اعضاء هذه الجمعية الزهراء ان اقف لديكم خطيباً مع انني اولاكم بالسمع والاصغاء فشكرت واعتذرت فلم يقبل لي عذر فلبيت الطلب وبعد ان قلّبت المواضيع التي يحلو البحث فيها مليًّا وجدت مراعاة للنظير — بعد ما تأكدتهُ من لطفكم وشرف اخلاقكم — ان اجعل موضوع خطابي الكلام عن مخلوق لطيف شريف لا يخلو الكلام عنهُ من طلاوة الجديد وافادة المفيد . ولست في هذا المقام متكلفاً الاعتذار عن قصر باعي لتأكدي ان لطفكم عذيري وضمين الرضاء لي والعذر شيمة الكرام

موضوع خطابي ايها السادة الكلام عن اسير يطلب الحرية . اسير لا اعلم ان كنتم لا تعجبون ان قلت لكم انهُ اسير مكبَّل بالقيود ملقى في اعماق سجن مظلم زمناً يربو عن سبعة آلاف عام وهو كل هذه المدة يستغيث ويستجير ولا مغيث ولا مجير . مرت عليهِ اعاظم رجال العلم والفلسفة وسمعوا بكاءهُ ودروا بلواءهُ ولم يبلغوا الى مطلاقهِ سبيلاً ومن حاول منهم تفريج كربتهِ واطلاق سراحهِ جوزي بنفس جزائهِ ومات باعراض دائهِ

هؤلاء العرب الجيل الناشيء بين معترك البيض والسمر القوم الذين هم ارق معاصريهم

(١) خطاب تلي في احدى الجمعيات العلمية في دمشق الشام

شعورًا وابعدهم عن احتضام حقوق الخلق نفورًا قام ابن رشد فيلسوفهم الكبير لتخفيف بعض اثقال هذا الاسير فزلزلت الارض في وجيهِ زلزالها واخرجت اثقالها وألمَّ بهِ من كوارث الزمن وبواعث الفتن ما شغلهُ بهمهِ عن سواهُ وغادرهُ يكرر : لا حول ولا قوة الاَّ بالله

وهذا الغزاليُّ الفيلسوف الشهير وهو كما يرى من وراء مؤلفاتهِ رجل صلاح وعدل. وتقى سمع شكواهُ ودرى حقيقة بلواهُ ولم يستنسب التعرض لامرهِ خشية ان يلمَّ بهِ ما الم بسلفهِ مع ضعف الامل بالنجاح . في وقت لم تنضج فيهِ داعيات الاصلاح

وكأني بكم يا سادتي قد زدتم تشوقًا الى معرفة هذا الاسير الغريب الحال واستطلاع مطلع امرهِ ولذلك ها انا اسألهُ على مسمعٍ منكم عن حالهِ ومآلهِ ومطمح آمالهِ واجيبكم بلسانهِ عن عجيب امرهِ وغريب شأنهِ وهذا مستهل المحادثة

— ما ذنبك ايها المسكين حتى قضي عليك بالاسر الابدي ؟

— تعدُّ ذنوبي عند قوم كثيرة ولا ذنبَ لي الاَّ العلى والفضائلُ

— وما هي تلك الفضائل ؟

— من تلك الفضائل انني عامل نشيط لا اتوقف عن العمل ثانية واحدة فاشتغل في الليل والنهار واتهجَّد عند ما يكون الناس نيامًا ولا اتعهد البطالة ولو اشتغلت باضغاث الاحلام

ومن تلك الفضائل انني سريع النهضة سريع العمل اجوب العالم الارضي من كرة الهواء الى اللجة الدأماء فالسيارات فالثوابت فعالم السر والخفاء واعود القهقرى فانشر مطوي الماضي واسرع الكرة فانشر مطويَّ المستقبل وكل ذلك في اقل من لمحة طرف او وميض برق . ومن تلك الفضائل انني مصدر كل عمل نافع ومشروع مفيد ورأي صائب وفن جميل

— مسكين . امثل حاوي هذه الفضائل يؤسر ويعاني حمل القيود ولكن ألا يمكنك ان تخبرنا عمن وشى بك حتى وقعت في هذه المنيَّة الفاجعة ؟

— لا اعلم عن ذلك غير اني من ساعة ولدت أُمسكتْ يداي ورجلاي وشددت بالاغلال وزجَّت في مطابق الاسر بالحال

— ان هذا اغرب واعجب ولكن هل من مانعٍ يمنعُ التصريح باسمك بعد ما عرفناهُ من غامض سرك وغريب امرك

— لا بأس في ذلك فانا الاسير بلا اثم ولا حرج انا الفكر البشري الذي يبكي الحرية من قرون طويلة وكلما دنت الحرية مني حتى اكاد ان المسها بيدي نفرت نفور الغادة الحسناء من شيخ رأسهُ كالثغامة اشيب ولم ابرح اودِّع املاً واستقبل آخر كسابح في اليم تتوالى عليهِ

الامواج فلا يودّع الماضية حتى يستقبل القادمة

— وممن تطلب الحرية ؟

— اطلبها من كل امة من الامم فالامة في كل بلاد هي العنصر الحي هي القوة الفعالة هي الاساس الثابت هي العامل المطلق منها اطلب الحرية التي لو خولتنيها كل القوانين والحكومات والتعاليم ولم تمد كل امة على حدة يدها لمناولتي اياها فمن العبث كل ذلك

— وبما ذا تعد الامة مقابل نصبها وجدها لاعطائك حريتك ؟

— اعطيها عندئذٍ كل خير كل نجاح كل مفيد كل نافع . اريحها من داء الخائلة اريحها من تبكيت الضمير اريحها من خديعة الغاش انشر علم الفضيلة على رؤوس الملا انني العلم الصحيح مما غشى وجهه الجهل من ادناس المراءاة والخاتلة وهل على هذا من مزيد ؟

— ولكن هل من لديك شواهد من سالف مآثرك تؤكد انجاز وعودك ووفاء عهدك ؟

— هذا من اسهل الامور . تذكر ولا احالك ناسباً انني مرة دنوت من خرستفوروس كولومبوس وهو متكئ على وسادة رقاد ولمست جبهته العالية وقلت ما قولك ايها المفضال ؟ : ان الله العليم الحكيم يخلق هذه الكرة الارضية ويملأ جانباً من قسمها الشرقي باليابسة ويترك القسم الآخر مجالاً لتعارك الامواج ومضرباً لنوافج الرياح ان هذا مضاد لحكمته ولابدّ ان وراء هذا البحر العظيم الذي يعانق شواطئ اوربا وافريقية طريقاً موصلاً الى الهند على اقرب وانسب حال وبرّاً عظيماً في اكتشافه للخلق نفع عظيم وخير عميم وكان من ذلك ما كان من سعي ذلك المكتشف وفوزه باكتشاف اميركا الذي درّ على الهيئة الاجتماعية فيوض الثروة وفتح في وجه الدشيطين باب الارتزاق باستثمار ارض عذراء يؤمها المهاجرون من اقصى الاصقاع سعياً وراء الثروة او جرياً امام حادي الحاجة

كان احد رجالي مرة يتأمل فتك الجدري الذريع ببني الانسان وقصفه اغراساً غضة لو نمت وجازت زمن الطفولية لكان ما فيها رجال تخدم الانسانية والعلم خدمات صادقة وبينما كان يتامل هذا الامر ادنيت شفتي من اذنيه وامررت اليه سر اكتشافه العجيب النافع فامتحن فاصاب وكان ما كان من جزيل النفع للانسان فكم رد اكتشافه اولاداً لوالديهم ووالدين لاولادهم كم برّد حسرات وردّ لهفات وانتشل مريضاً عزيزاً من قبضة الممات . وماذا اعدّ من امثال ذلك فمثل هذه الاعمال المفيدة لاتخلو منها ساعة من ساعاتي ولو قلبت يوميتي صفحة صفحة وتلوتها سطراً سطراً لوجدتها مجموع اعمال جلى قد عادت على الجنس البشري سلطان الوجود الارضي المتملك مملكتي الحي والجماد باوفر نفع لا ينكر وجزيل افادات لا تحصر . وهذا هو العلم

الذي لاينكر فضلهُ عاقل من يعيد غيري ومن ينقلهُ من ذهن الى ذهن سواي وهذه البلاغة ألستُ اول شروطها الثلاثة وهي قلب متكر . وبيان مصور . ولسان معبّر . وهذا الشعر سيد الفنون الجميلة أليس هو مجموع افكار دقيقة رقيقة سامية مفرغة في قالب مخصوص

— ولكن بعض الباحثين يقولون ان باطلاق سراحك اندفاع الانسان في ميادين المنكرات وتجرؤهُ على التعاليم الدينية المقدسة وتطاولهُ على الرئاسات المدنية السامية التي بها انتظام الامور ونفوذ عدل الدستور

— يشهد الله اني بريء من هذه التهم والفظائع التي ليست الاَّ من تفريرات الخناس الذي يوسوس في صدور الناس اما انا الفكر البشري الشريف اللطيف السامي لا ينتج مني الاَّ كل ما هو سام كل ما هو نافع للانسانية وبنيها

— لااظن ايها الفكر البشري ان عاقلاً لايشعر بوجوب اطلاق سراحك وكسر قيود اسرك ولكن كثيرين من الكتبة والمؤرخين يقولون انك قد اطلقت من اعتقالك عند اول طلق أُطلق من المدافع على الباستيل اكبر مجون اعوانك وانصارك في مطلع الثورة الفرنسوية الشهيرة

— لا لا فالامر مبالغ فيهِ كثيرًا ولا تصدق كل ما يقولهُ المؤرخون والكتاب فالكثيرون منهم يتمسكون بتلك الآية التي اوحاها الى الخلق شيطان جبن النفس وهي — ان ليس كل ما يعلم يقال — اتظن انني مطلق الحرية ؟ وهذه الدول تقوم القوية منها لتسحق الضعيفة باقدام اطماعها الثقيلة وجانب من الدول الباقية تحرق الارض غيظًا من عملها وسفراؤها في عاصمة تلك الدولة المحتجة بالقوة لا العدل تجاملها كل المجاملة وتؤكد لها وثوق عرى التحاب بين دولهم وبينها . اهذه هي حريتي ؟ اواه من هذه الحرية اتظن ان حريتي باطلاق بعض الجرائد في غيها تسبُّ زيدًا وتشتم عمرًا لقاء انتقام نفس دنيئة او لشراء ذاك المشتوم شرف عرضهِ بمال يدفعهُ لمحررها الذي يسمي نفسهُ خادم الانسانية وناشر لواء الحق . . . امن حريتي اطلاق جرائد اخرى شوطًا قصيًا في حلبة المجاملة لاكتساب رضى القراء وارباب الاموال واذا كتب كاتب كتيبًا في كل قنطار من ابحاثهِ درهم من الفائدة واهداهُ الى ادارتها جعلتهُ في تقريظها منتهى الحكمة وآية البلاغة

اه منك ايتها العدوَّة الزرقاء المسماة في اللغات الاجنبية (بالبلوتيكه) طوبى لمن يملك اولادك ويضرب بهم الصخرة فهم مضيعو الحقوق وتاركو الاحق غارقًا في لجة جهلهِ والعاقل آسفًا على اضاعة التعابهِ وعدهِ في عداد من لا يراهم اهلاً للانتظام في سلكهِ من كرام الرجال

خدمة الانسانية والوطنية نعم ان الحقيقة تكون في بعض الاحيان مرة موجعة ولكن السكوت عنها يكون اوائذ امرّ واوجع

— اسأل الله لك ايها الفكر البشري نيل مرامك والتخلص من ربقة اسرك وقبل الختام ارجو ان تخبرني عن رأيك في الدمشقيين فاني اراك صائب الرأي اصيلهُ

— لست جحوداً لانكر فضل بعض ادبائهم الذين يميلون اشد الميل الى اطلاقي من أسري ولكن بمقتضى مبدإي الذي اجاهر به وهو حرية الفكر انول انهم في المرحلة الاولى من الطريق وان التمام لا يتم لهم الاّ بتمسك الامة باسرها بمبدإي القويم . وقد اطلنا الحديث وربما يكونون قد ملوا من هذه الاطالة فأرى بما تقدم الكفاية

سادتي : انني حضرت الاحد الماضي خطبة الخطيب الذكي في تلك الحفلة وقد اخذ موضوعاً لهُ وجوه متضاربة فحللهُ تحليلاً كيماوياً وتناول لبابهُ واوضح الحقيقة بلا احتراس او تستر فشعرت عندئذٍ ان قوة داخلية تقبض على فؤادي وترقصهُ سروراً وارتياحاً وهذا الارتياح دفعني لاشكركم انتشار مبدإ حرية الفكر بين ظهرانيكم ولم ارَ موصلاً الى شكر يدخل النفس من باب الصدق والصواب الاّ بتمهيد هذه المقدمات الشعرية ولا اراني في حاجة الى حث حضرتكم على التمسك بهذا المبدإ الشريف مبدإ حرية الفكر فانتم ادرى مني واخبر بفضله ونفعهِ وانما ارجو كلما عنّ مبدأ حرية الفكر لكم ان تذكروا باخبر هذا الغريب العازم على الرحيل الذي

يودعكم ويودعكم فؤادًا بقربكم لقد عشق الاقامه
سيترك عندكم قلبًا شكورًا يكرر شكركم حتى القيامه

(حامد)

وصف دمشق للشيخ عبد الغني النابلسي

إن سامك الخطب المهول فأقافقا فانزل بأرض الشام واسكن جلّقا
بلدٌ سمت بين البلاد محاسنًا ونمت بهاء واستزادت رونقا
زاد السرور بها لكل معرّج لا سيما ان كان من اهل التقى
ان تعشقوا وطنًا فذي اولى لكم دون البلاد بأن تحب وتعشقا
خير الاناس أناسها يرعون أنـ ـواع الوداد ويحفظون الموثقا
هي جنة للطائعين معدّة يتمتعون ولا يرون بها شقا
طابت هواء للنفوس وماؤها عذبٌ زلال سائغ لمن استقى